

تيمة السفر عبر الزمن في رواية "الذين كانوا" لنبيل فاروق
- نظرة إلى التاريخ بشكل مختلف -

**The theme of time traveling in the novel of Nabil Farok
titled "those who existed"
- a look into history in a different way -**

* ط.د. منير سعدي¹ د.نبيلة زويش²
Mounir saidi¹ Nabila zouich²

جامعة: مولود معمري - تيزي وزو - / مخير: الممارسات اللغوية (الجزائر)

University of Mouloud Mammeri - Tizi ousou - Algeria.

mounirhachimia@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/11/07	تاريخ القبول: 2020/06/15	تاريخ الإرسال: 2020/04/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

عُرفت الرواية العربية في السنوات الأخيرة اهتماما بالغا من بعض المبدعين بتجريب الكتابة في مجال أدب الخيال العلمي، فبعد أن شاعت الفكرة ولاقت ترحيبا من الجمهور، خاض العديد من الكتاب العرب هذا الميدان بمحاولات جادة تنوعت فيها المواضيع وجرّبت فيها العديد من تقنيات الكتابة، حتى أصبحت بمجرور السنوات تيمة السفر عبر الزمن ذهابا وإيابا تشكّل فرعا بارزا في أدب الخيال العلمي العربي، ويعدُّ المصري "نبيل فاروق" من بين الذين اقتنحوا هذا الميدان بجرأة خصوصا في روايته الأخيرة "الذين كانوا"، إذ غاص بأفكاره المتشعبة في موضوع السفر عبر الزمن، إلا أنّ وجهة رحلته الزمنية لم تكن إلى المستقبل بل إلى الماضي للبحث في أسراره. فما طبيعة هذه الرحلة؟ لماذا كانت الوجهة نحو الماضي؟ ماذا وجد هنالك؟ كيف عايشت شخصيات الرواية أحداث الرحلة؟ هي أسئلة وأخرى متعلقة بالخيال العلمي أساسا ستحاول هذه الورقة البحثية الخوض فيها.

الكلمات المفتاحية: خيال علمي، رواية، تيمة، زمن، تاريخ، الذين كانوا.

Abstract:

The Arabic novel has known in recent years a great interest from some creators in experimenting with writing in the field of science fiction literature. After the idea spread and was welcomed by the audience, many Arab writers fought this field with serious attempts in which a variety of topics were tried and many writing techniques were tried, until it became

* منير سعدي. mounirhachimia@gmail.com

over time. Years are the mainstay of back and forth time travel, which constitute a prominent branch in Arab science fiction literature, and the Egyptian "Nabil Farouk" is among those who boldly stormed this field, especially in his recent novel "Those Who Were", as he was filled with his divergent ideas on the subject of time travel. The point of his time journey was not to the future, but to the past to search for his secrets. What is the nature of this trip? Why was the destination towards the past? What was found there? How did the characters experience the events of the journey? These are questions and others related to science fiction mainly that this research paper will try to delve into.

Keywords: science fiction, novel, theme, time, history, those who existed.



- تمهيد:

يُعتبر الخيال العلمي "science fiction" إحدى تبعات الثورة العلمية الحديثة والاكتشافات التكنولوجية التي حققتها العلوم في جميع الميادين، حيث وُلد الخيال العلمي مع العلوم التطبيقية، فغزا العلماء بمجديد اكتشافاته آفاق ما كانوا يحلمون به، وبلغوا بخياله مواقع لم يحلموا حتى بارتدادها، وحققت هذه الثورة العلمية في الوقت القصير ما لم تحقّقه البشرية عبر العصور، وكان طبيعياً أن ينتج أدب في هذه الفترة هو أدب الخيال العلمي، فبرز كمرافق لهذه الثورة العلمية، ولفت الانتباه إليه كنمط جديد في الكتابة الفنية، يوظف القص ويجعل من الروايات تحمل سمات الخيال العلمي المقترن بمجديد المخترعات والتنبؤات العلمية التي تحمل تصوّرات استشرافية للكيفية التي ستكون عليها حياة الإنسان في المستقبل، من خلال وصف أثر التطور العلمي على مختلف مناحي الحياة.

وارتاد السرد الأدبي عن طريق الرواية هذا النوع من الكتابة التي تستهدف المجهول، والمغامرة في قلب المستقبل أو الماضي، حتى «أصبحت رواية الخيال العلمي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي وما تزال واحدة من أكثر ألوان الأدب شعبية... ورواية الخيال العلمي تنطلق من حقيقة علمية ثابتة أو متخيّلة لتكشف عن جانب مجهول من الكون، أو لتصف حياة البشر في المستقبل القريب أو البعيد»¹. فتعالج بطريقة خيالية آفاق التقدّم العلمي وما سيتوصّل إليه الإنسان في المستقبل من اختراعات في شتى حقول المعرفة ومناحي الحياة، «بل

إنه يعدّ من الخيال العلمي كل أدب روائي يتطرّق لموضوعات مثل: الحركة في الزمن، عالم الفضاء والمخلوقات غير البشرية، نهاية العالم، ما فوق الإنسان، الأسلحة الفتاكة، حياة العلماء ووصف المخترعات، تجسيد عوالم الإنسان الداخلية، وصف العوالم الموازية لواقعنا، وصف تقاطبات معينة ثم وصف أثرها الافتراضي...»².

وأدب الخيال العلمي فوق كل ذلك نمط من الكتابة يحمي الحدود الفاصلة بين الأدبي والعلمي، ويعلن عن نوع من المصالحة بين الأدب والعلم (الخيال والدقة)، أو على الأقل يقوم بالجمع والتوفيق بينهما وفق «نسق وصيغة خاصة في الكتابة الإبداعية، يتكون من ركيزتين أساسيتين هما المخيّل الأدبية الممزوجة بالحقائق العلمية المجردة، والتي يستقي منها الكاتب عناصر التكوين الأساسية لهذا الأدب، والحقائق العلمية ذاتها المستمدّة من الطبيعة والواقع والابتكارات والمخترعات والتكنولوجيا الحديثة المترجمة هي الأخرى بمخيلة الكاتب»³.

فيما يمثّل التلاعب بالزمن عبر تجاوز حدوده المادة الجوهرية التي يتكئ عليها معظم كُتّاب الخيال العلمي في بناء عوالم رواياتهم الخيالية، فتجدهم دائما ما يستندون في كتاباتهم الإبداعية إلى جديد العلم والصناعات التكنولوجية والاكتشافات الرقمية والنظريات الفيزيائية الحديثة، فيستوحون منها ما يغذي خيالهم الأدبي، ليتمكّنوا عن طريق المعلومة العلمية من استلهاهم الإمكانيات اللامتناهية لقدرة الإنسان على السفر في آفاق الزمن يوما ما، إذ يتطلب هذا النوع من الكتابة من المبدع أن يُزاج بين الثقافة العلمية والملكة الأدبية ضمن تكوينه الفكري، حتى يخلّق بخيال القراء ليعيشوا ما يمكن أن يحدث في مستقبلهم، أو ليعود وإيّاهم إلى الماضي السحيق لمساءلته والبحث فيه.

وبالرغم أن الثقافة العربية ظلّت بعيدة عن مسايرة التقدّم العلمي والتكنولوجيا المتطورة التي بلغها الغرب، والتي تُعدّ الملهم الأوّل لمن يرتاد هذا النوع من الكتابة، فإننا نلتبس في الإنتاج الروائي العربي بعض الروايات المتأخّرة التي حاول أصحابها حوض تجربة الكتابة في ميدان الخيال العلمي. وتُعدّ رواية "الذين كانوا" لنبييل فاروق واحدة من أهم الروايات العربية المعاصرة في هذا المجال، إذ تكشف عن جوانب مجهولة للحياة في الكون، فتحلّق بخيال القراء في كل الاتجاهات الزمنية من الماضي إلى الحاضر والمستقبل، وتنقل بهم في عدة أمكنة على الأرض، وعلى سطح القمر، وتأخذهم إلى عوالم تقع في أبعاد أخرى، فتصِفُ لهم عوالم غريبة موازية لواقعنا كانت قد

عاشت فيها مخلوقات عجيبية مع الإنسان في نفس الوقت «... كائنات لها أجساد بشرية. ولكن رؤوسها تامة الاستدارة. بما عينان واسعتان. بينهما أنف كبير، أسفله فم دقيق...
أما الرؤوس فكانت صلعاء تماما....

الكل كانوا متشابهين، كما لو أنه قد تم استنساخهم من خلية واحدة...
أما المكان المحيط به، فقد أصابه برعب حقيقي...

كان يرقد على شيء أشبه بدفق هوائي، يسبح فوقه جسده في نعومة، ونافذة كبيرة أمامه، تطلُّ على مبان عالية بعيدة متناسقة، خلفها سماء اختلطت زرقتها بحمرة خفيفة، مع قليل من السحب الرمادية، تميل أطرافها إلى البرتقالية...
إنه ليس على كوكب الأرض حتما...»⁴

عاشت هذه الكائنات - كما جاء في الرواية - منذ مئات آلاف السنين وفي نفس الرقعة الجغرافية مع البشر، ولكن في بعد مواز لعالمنا، دون أن يحس أحد بوجودها أو يخترق عالمها أو يدرك حقيقة التقدم والتطور التكنولوجي المبهر الذي عاشت فيه هذه المخلوقات، بالرغم من أنها حاولت الاتصال بعالمنا عديد المرات.

فأين تقع هذه العوالم؟ في الأرض أم خارجها؟ كيف سيصل الإنسان إليها؟ وهل باستطاعته العيش فيها؟ ما الهدف من زيارتها؟ وكيف سيتواصل مع سكانها؟ وهل باستطاعته العودة إلى الأرض من جديد؟ كيف ستؤثر هذه الرحلة الزمنية على تصوراتنا لحقيقة الحياة في الماضي، ولما سيقع في المستقبل؟ ولكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لابد من أن نعرض بالحديث عن بدايات الخيال العلمي وكيف استثمر رواده من الكتاب عبر العالم والوطن العربي في حلم الإنسانية بإمكانية الانتقال والسفر عبر الزمن يوما ما، إذ «لم تستأثر فكرة من أفكار الخيال العلمي بالخيال البشري قط، قدر ما فعلت فكرة السفر عبر الزمان...»⁵ وما تتيحه من إمكانية الانتقال للعيش في المستقبل قبل الأوان، أو حتى الاستدارة بعجلة الزمن على أعقابها إلى الماضي لإعادته عيش أحداثه من جديد.

- أولاً: الخيال العلمي كجنس أدبي في العالم والوطن العربي:

كانت بداية الكتابة في الخيال العلمي كما هو معلوم في الغرب، إذ وُلد هذا النوع من الأدب في نهاية القرن التاسع عشر، ولفت الأنظار إليه أكثر في مطلع القرن العشرين مع الثورة

الصناعية والنهضة العلمية الحديثة التي عرفها أوروبا، فسطع نجمه كجنس أدبي جديد، وتشبعت رواية الخيال العلمي حينها بروح العصر السائدة في تلك الفترة خصوصا في فرنسا وإنجلترا، فالثورة العلمية الصناعية التي شهدها العالم الغربي أواخر القرن الثامن عشر ألهمت خيال الأدباء، كما ألهمت عقول العلماء بما حققته من تقدّم علمي أذكى فكر الإنسان، فخلق بدوره مجالا جديدا واسعا للكتابة السردية التخيلية، إذ حرّضت قوة الآلة والتقنية ودقّة العلم في الروائيين الروح الإبداعية، فبرزت أعمال كتاب أدب الخيال العلمي في الغرب حاملة طابع الآلة التي تستطيع صنع المعجزات⁶، استجابة من الكُتّاب لكل أنواع التقدّم في العلوم والتكنولوجيا بطريقة خيالية محضة؛ فرواية الخيال العلمي تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليًا على عنصر الخيال أو المخيلة، بالرغم من طبيعتها العلمية المبنية على بعض الكشوفات الدقيقة يبقى اشتغال المخيلة والنبوءة فيها هدف محوري⁷.

وظهر مصطلح "أدب الخيال العلمي" أوّل مرّة إلى الوجود «مع روايات الفرنسي (جون فيرن) في مغامرات علمية مدهشة عن غواصة أعماق لم تكن قد ظهرت، وعن طائرات عملاقة وعن أرض نسيها الزمن وعن رحلات إلى الفضاء والقمر...»⁸، ورغم أن كتاباته لم تقتصر على أدب الخيال العلمي فقط، إلا أن شهرة "فيرن/ J. Verne" في هذا النوع الأدبي قد طغت على جميع ما كتب، لأنه استشرّف أمور علمية قبل أوانها فتحقّقت في النهاية، وكانت بداية تجرّبه في أدب الخيال العلمي مع روايته (خمسة أسابيع في منطاد) 1863، ثم جاءت رحلته الثانية إلى مركز الأرض في رواية (رحلة إلى مركز الأرض)، ثم كتب رواية أخرى بعنوان (من الأرض إلى القمر) وهي الأشهر بين أعماله جميعا.

وإضافة إلى أعمال جون فيرن الرائدة في هذا المجال ظهرت أعمال «الإنجليزي المتفوق (هـ-ج- ويلز/ H.G.wells) الذي أعطى عمقا لهذه المغامرات العلمية، بإضافة بعد فلسفي إنساني كما في روايته (آلة الزمن) و(الحرب والسلام) و(الرجال الأوائل على القمر) وغيرها كثير...»⁹. ومع أن "ويلز" كان التّظهير الإنجليزي للروائي الفرنسي "فيرن" فإنه تميّز عن الثاني بأسلوبه الخاص في السرد، فهو أكثر اهتماما بالخيال والفتناريا من "فيرن"، وأقل منه تقيّدا بالحقائق العلمية وبقواعد العلم الصارمة.

انتشرت بعد ذلك الكتابة في أدب الخيال العلمي في جميع أنحاء العالم بدرجات متفاوتة، فوجد في جميع الثقافات، لتزدهر في أمريكا قصص الرُّعب والفرع أو ما يسمى بالقصص السوداء على يد "أبراهام مريت/Abraham Maryt" و"إدغار ألان بو/Edgar Allanpoe" و"أمبروز جوينت بيرس/A.G.Bierce" وصولاً إلى كتاب العصر الذهبي لأدب الخيال العلمي في أمريكا أمثال "إسحاق أسيموف/Isaac Asimov" و"روبرت هيلين/Robert Hélele" و"وراي بادبوري/Worray badbory"...

أما أدب الخيال العلمي بصيغته الحديثة في الغرب فقد دخل إلى أدبنا العربي بصورة مُحتمشة، لاقت في بدايتها الكثير من الرِّفض والصد من بعض النقاد العرب كون هذا النوع من الكتابة في رأيهم يفتقد إلى الجدوية والواقعية¹⁰، ويعدُّ صنفاً غريباً لا يمتُّ بصلة لثقافتنا وإلى واقعنا العربي المتخلف، إلا أن ذلك لم يمنع عدداً من الأدباء والمنتقنين العرب من حوض تلك التَّجربة، فبرز بعض الأدباء - رغم قلتهم - في جميع أنحاء العالم العربي كمصر وسوريا ولبنان وحتى السودان وتونس والمغرب والجزائر... بدءوا يهتمُّون بأدب الخيال العلمي إبداعاً ونقداً.

وبرز الروائي المصري "نهاد شريف" بصفته أحد رواد أدب الخيال العلمي في الساحة الأدبية العربية الحديثة، إذ اقتصر كتاباته على أدب الخيال العلمي ولم يكتب في أدب غيره، بداية بأول إنجاز له في رواية (قاهر الزمان) عام 1996، والتي حوِّلت إلى فيلم سينمائي لاحقاً. وكان قد سبقته بعض التحارب الأدبية الرائدة في هذا مجال على يد "توفيق الحكيم" و"مصطفى محمود" في خمسينيات القرن الماضي، خصوصاً رواية هذا الأخير التي جاءت تحت عنوان (رجل تحت الصُّفر). أما أشهر أعمال "الحكيم" في هذا الباب فكانت عدَّة مسرحيات، من بينها: (رحلة إلى الغد) عام 1956، و(تقرير قمري) عام 1982، و(شاعر على القمر) في السنة نفسها. أما في مجال القصة فنجد له قصة خيال علمي صغيرة تحت عنوان (في سنة المليون)، وأخرى بعنوان (الاختراع العجيب)... كما نجد من الذين كتبوا في هذا الميدان الأديب والباحث "طالب عمران" بنصه (الأزمان المظلمة) 2003، و"محمد الحاج صالح" من سوريا، و"أحمد عبد السلام البقالي" من المغرب الذي أصدر رواية (الطوفان الأزرق)، و"الهادي ثابت" من تونس بنصه (غار الجن) 2005، ومن السودان ظهر "جمال عبد الملك بن خلدون" بروايته (العصر الأيوبي)

1981. ودخلت المرأة العربية هي الأخرى هذا الميدان على استحياء، فأصدرت "طيبة أحمد إبراهيم" من الكويت ثلاثيتها النَّاجحة التي تدور حول مخاطر الاستنساخ على الإنسانية. أما من الجزائر فيمكن عد "فيصل الأحمر" الرائد الأول لأدب الخيال العلمي من خلال أعماله القصصية القصيرة، وكذلك روايته الأولى (إسلاميا) التي نشرت في الصحافة ما بين سنتي 1996-1997، ونجد من أعماله أيضا رواية (أمين العلواني) سنة 2007، ليظهر بعد ذلك على ساحة أدب الخيال العلمي الجزائري الكاتب "حبيب موني" بروايته (جلالة الأب الأعظم) سنة 2014، وغيرها كثير من الأقلام العربية والجزائرية التي خاضت تجربة الكتابة في ميدان الخيال العلمي⁽¹¹⁾، كان آخرها صدور روايتان جزائريتان، الأولى: لـ"بوعلام صنصال" (2084 نهاية العالم)، والأخرى لـ"واسيني الأعرج" بعنوان (2084 حكاية العربي الأخير). إلا أن الحديث عن استقلالية هذا الفن واكتماله في الأدب العربي مازال متعثرًا في الواقع، ولم يرقى الاهتمام به إلى المطلوب بعد.

وما يمكن ملاحظته حول هذا الزكام الهائل والإنتاج الأدبي الوافر في ميدان الخيال العلمي أن رواه في الوطن العربي - كما هو الحال على المستوى العالمي - قد انقسموا به في اتجاهين: اتجه يُوصف بأنه جاد ومُنبّه للغفلة، لأنه يحكي عن هموم الإنسان المستقبلية ورهانات التحدي التي تنتظره في قادم الأيام، فيتنبأ بمخاطر الحروب النووية، وزيادة التلوث، وتصنيع أسلحة الدمار الشامل، والتضييق على الحريات وحقوق الإنسان من قبل أنظمة متسلطة ومستبدّة لا تُلقِي بالا بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية. أما الاتجاه الآخر فهو قريب من الفنتازيا، تتميز الكتابة فيه بالمغامرات الخارقة، والمبالغات، وشطحات الخيال الخرافية، التي تميل إلى الغرابة، والتسلية، والإمتاع...¹².

ويبقى - على الرغم من ذلك - اجتماع الضدين (العلم والأدب) هو الذي يُحقِّق شعريّة خاصّة لرواية الخيال العلمي، ويحدث فجوة تؤثر تعدُّ شرطًا أساسيًا لجمالية هذا اللون من الكتابة التي تستهدف المجهول، وتنظر إلى البعيد من الزمن، فتتداخل أبعاد هذا الأخير وتتلاشى حدوده ليصبح زمنًا شعريًا «فالزمن في أدب الخيال العلمي من الظواهر التي أصابها التحول شعريًا. فخرج من دلالاته المعهودة في الأدب بخصوصيّتها إلى دلالة غير مألوفة»¹³ تفيض بطاقات تخيلية خلّاقة، وتقوم بدرجة كبيرة على التلاعب الزمني الحاد بحدوده، وذلك بالانتقال بين الماضي والحاضر

والمستقبل. فتحاول الجمع بين الذي كان في الماضي والموجود في الواقع والمأمول مستقبلاً¹⁴، بطريقة فنية ترهن إلى المرزج بين الخيال الأدبي والحقيقة العلمية.

- ثانياً: تجاوز الحدود الزمنية وصدمة الحقائق العلمية في رواية "الذين كانوا":

بُنيت الأحداث والوقائع في رواية "الذين كانوا" لنبيل فاروق على فكرة أساسية اتخذها معظم كُتّاب الخيال العلمي تيمة لهم، وهي فكرة الحركة في الزمن أو الرحلة الزمنية، إذ تخرق الشخصيات في هذه الرواية حدود الزمن متحدية ديمومة واستمرارية جريانه، عبر الانتقال في أبعاده بحرية؛ فبعد قيام مجموعة من العلماء والباحثين بعدة دراسات وتجارب حول العبور عبر الزمن، انتهى الأمر بهم إلى النجاح في إرسال خبير البرمجيات "شريف فؤاد" إلى «عالم مواز... كون آخر... هذه هي النظرية التي توصل إليها العلماء... كون يماثل كوننا تماماً، ولكنه يتقدم علينا بعدة سنوات، في سلم التطور...»¹⁵.

وتمت لهم هذه الرحلة الزمنية بعد نجاحهم في إقامة فجوة منعدمة المجالات مقدار الطاقة الكهرومغناطيسية المحيطة بها يساوي الصفر: «كانت هنالك دائرة حمراء تتكون حول (شريف) بالفعل، والطاقة الكهرومغناطيسية تنخفض وسط الدائرة المعدنية... وتنخفض... وتنخفض... وكلما انخفضت، بدت الدائرة الحمراء أوضح وأوضح...»

ثم، وبفزة واحدة، أشار المؤشر إلى الصفر... ودوت في القاعة الزجاجية فرقة مكتومة، كادت تحطم قبتها... وبعدها اتسعت عيون الكل، في ذهول مصدوم.... واختفى معها (شريف)... تماماً»¹⁶

ليجد نفسه على ما يبدو في عالم مواز لعالمنا، ووسط مخلوقات غريبة من العالم الآخر هي من قامت باختطافه، ليكون سفيرها بين حضارتين بحسب سكان العالم الآخر: «مرة أخرى، تراجع صاحب الوجه المستدير مصعوقاً، قبل أن يقول في توتر ملحوظ: - ولكنك بالفعل سفير غير عادي بين حضارتين عظيمتين»¹⁷. لتتوالى بعد ذلك الأحداث الغريبة والصدمات على شريف في رحلته هذه، الصدمة العلمية تلو الأخرى.

وكانت أولى الحقائق التي واجهت "شريف" في العالم الآخر هو أن التقويم التاريخي الذي يتبعه سكان العالم الآخر في الحساب يختلف عن تأريخ سكان الأرض، بل يتجاوزها بما يفوق أربعين قرن كاملة (من ق 20 إلى ق 61)، يقول الراوي: «عاد صاحب الوجه المستدير يستخدم

ذراعيه، وهو يقول: كانت تلك المسارات الثعبانية، أو الثُقوب الدودية، مجرد فرضيات، حتى أمكننا رصدها، عام ستة آلاف وسبعة.

توقّف (شريف) عند هذه النقطة، وهو يهتف:

- ستة آلاف وسبعة؟! -

مَسَّ صاحب الوجه المستدير كتفه مرة أخرى في رفق وهو يقول:

- تاريخنا يختلف... -

قاطع (شريف) في عصبية... السؤال الآن هو: هل باستطاعة علومكم في قرنكم الستين، إيجاد وسيلة لإعادتي إلى عالمي... لا أريد أن أموت خارج الأرض.

ازدرد صاحب الوجه المستدير لعابه في صوت مسموع، ثم أشار بيده، قائلاً في توتر:

- نحن في قرننا الحادي والستين، والمشكلة أنك لن تستطيع استيعاب هذا كما عجزنا نحن...»¹⁸

لتليها بعد ذلك صدمة أخرى تلقاها (شريف) عند سماعه حقيقة أنه لا يزال بجسده متواجداً على كوكب الأرض ولم يفارقه بعد: «هذا بالضبط ما خشينا أن يصعب عليك استيعابه... إنك لم تغادر كوكب الأرض قط»¹⁹، ولكن المفارقة في كل ذلك أنه عندما كان يُشاهد ما حوله في العالم الجديد الذي انتقل إليه، لم يُصدّق بأنه لا يزال على كوكب الأرض، لعدة أسباب، بداية بالتكنولوجيا المتطورة، والمناخ المغاير، والنباتات المختلفة، مروراً إلى صفات الكائنات التي كانت حوله: «كل شيء يختلف من حوله يختلف تماماً عن كوكب الأرض... ليس ما يحيط به من تكنولوجيا متقدمة فحسب... ولكن المناخ نفسه... السماء ليست سماء الأرض الزرقاء، يعرفها...»

إنها سماء مشرّبة بحمرة خفيفة، تجعلها أقرب لمزيج من سماء الأرض والمريخ معا...

تلك الأبنية، التي تبدو من بعيد تشف عن تقنية بناء عالية، ولكنها لا تشبه أي مبنى رآه على وجه الأرض...

بل والكائنات نفسها تختلف... وجوهها مستديرة... عيونها واسعة... أنفها كبير...»

وحتى ذلك الفم الصغير المستفز... لا... هو حتماً ليس على كوكب الأرض... مستحيل!!»²⁰

ولعل أقوى الصدمات المعرفية التي مرّت على "فؤاد شريف" وأعنفها على الإطلاق ما سمعه على لسان المخلوقات الغريبة حول حقيقة الرحلة التي قام بها، وبأنها كانت في الزمان دون

المكان، قام برحلة زمنية على كوكب الأرض، ولكن ليس إلى المستقبل بل إلى الماضي: «- هل تعتقد أنك سافرت إلى المستقبل!؟»

هزّ (شريف) كتفيه، وأشار إلى ما حوله، قائلاً: - أظن هذا يبدو واضحاً.

صمت صاحب الوجه المستدير لحظة، ثم قال:

كثيرة هي تلك الأمور، التي توحى بقمة الوضوح، وهي في واقعها ذروة الغموض.

قال (شريف) في حذر: - أهذا لغز آخر!؟

هز صاحب الوجه المستدير رأسه نافياً وقال: - ماذا لو أخبرتك، أنك لست في مستقبل الأرض.

بمت (شريف). وهو يغمغم: أين أنا إذا؟!²¹

يتّضح بعد تتبع مسار الحكيم أن وجهة الرحلة الزمنية كانت نزولاً إلى الوراء، وبالضبط إلى الماضي السحيق للأرض قبل ملايين السنين الغابرة، بل قبل ظهور الإنسان على سطحها، حيث عاشت تلك الكائنات مع الديناصورات في حضارة جد متطورة بعد أن نجت من حرب مدمّرة، ماتت فيها جميع الكائنات الحيّة، إلا كائنات البُعد الآخر والديناصورات التي تحوّلت من مجرد زواحف إلى كائنات عملاقة بسبب الإشعاعات التي تعرّضت لها في الحرب. يقول صاحب الوجه المستدير عن الكيفية التي نجت بها الديناصورات بعد أن مُسخت في زمانهم: «... لقد كانت مجرد زواحف عادية. حتى كانت آخر الحروب في حضارتنا، منذ ثلاثمائة سنة تقريباً فخرج لنا جيل مشوه من الزواحف والنباتات، وكلّها لم تستطع التكيف مع ظروف الحياة فبادت وانتهت... فيما عدا الديناصورات... هذا لأن التشوّه الذي أصابها كان محدوداً...»²².

ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هنا على القراء هو: لماذا اختارت هذه الكائنات من العالم الآخر الاتصال بعالمنا؟ ولماذا توجهت هذه النقلة الزمنية من الحاضر إلى الماضي بالضبط؟ ما أهمية هذه الرحلة التي ارتدّت بالإنسان إلى حضارة "الذين كانوا قبلنا"؟ هل ستغير هذه الرحلة الماضي أم الحاضر؟ أم هي رحلة استكشافية لها هدف آخر؟.

- ثالثاً: "الذين كانوا" ... رواية تُثير لغز الحياة وتُعيد البحث في التاريخ:

يبدو أنّ وجهة السفر الزمنية نحو الماضي التي اختارها كاتب رواية "الذين كانوا" محطة لبعض أحداث حكايته الخيالية لم يكن الهدف من ورائها تغيير ماضي الإنسانية، أو التأثير فيه، أو تحويله، بل كانت كمثال رحلة استكشافية قادت الشخصيات في الرواية إلى الانتقال من زمانها نحو

حضارة قديمة، جد متطورة ومنسية لم يتعرف عليها أحد قط حتى أفناها الزمان، وهي حضارة الذين كانوا قبلنا، مخلوقات غير بشرية عاقلة، لم يصلنا من أخبارها شيء رغم أنها تفوّقت على الحضارة الإنسانية الحالية في قرنها العشرين علميا ومعرفيا وتكنولوجيا قبل ملايين السنين الغابرة.

كانت هذه الرحلة الزمنية بالنسبة لمخلوقات العالم الموازي لعالمنا طفرة علمية، جعلت الاتصال ممكنا مع الحضارات الأخرى من أجل توصيل رسائلها من الماضي إلى كل الأمم وفي كل الأزمنة، يقول صاحب الوجه المستدير مخاطبا (شريف): «... وصولك إلى هنا كان طفرة علمية، لم يتصور علماءنا حدوثها... طفرة زمنية، أدهشتنا بأكثر مما لأدهشتك... ولكنها فتحت أمامنا مجالا فريدا لتواصل مع زمنك...»²³.

وتتمثل الرسالة التي يريد سكان الحضارات السابقة إيصالها لحضارتنا، في كونها رسالة إنذار وتحذير من المستقبل الذي ينتظر الإنسانية، إذا ما واصلت فيما هي عليه في الحاضر، فتفتى كما فئت الأمم السابقة، وفي هذا الصدد يقول (شريف) مستفسرا عن فحوى الرسالة المكلف بتوصيلها إلى زمانه: « - لماذا تريدون الإيصال بحضارتنا إذا؟! »

أجابه في سرعة:

- لنحدركم... لنفتح عيونكم على ما تسرون فيه... حضارتكم عنيفة قاسية... وحشية في كثير من الأمور، وتسيئون إلى بيئة الأرض بإساءات بالغة، وكأنكم تقتلون أنفسكم قبل أرضكم»²⁴. وهي رسالة بليغة تُدعى فيها الإنسانية كافة إلى مراجعة حساباتها المستقبلية، ومراقبة ما تقوم به من أفعال في حاضرها، وقبل ذلك تدعوهم إلى إعادة النظر في لغز الحياة وحقيقة التاريخ بالتبصّر فيما وقع في الماضي والبحث في خباياه: «الحياة لغز كبير، والتاريخ لغز أكبر... أمور كثيرة نعرفها... وأكثر نجهلها... في كل قارة على الأرض يكمن لغز ما... أهرامات... أحجار... خرائط... تنبؤات فلكية... كلها ألغاز وضعها الذين سبقونا، للبحث فيها...»²⁵ من جديد.

ومن بين القضايا المهمة والكثيرة التي يطرحها خيال الرواية العلمي للنقاش، نجد ما تدعونا إليه ضمناً أحداث الرواية إلى ضرورة إعادة النظر في بعض الأشياء القديمة: كالمخطوطات والمعارج والبنائيات القديمة (وهي تعتبر حقائق حسب ما تشير إليه الرواية)، بقيت إلى الآن مبهمّة وغامضة تثير حولها الكثير من علامات التعجب والاستفهام، ومثال ذلك الرسومات الموجودة في الكهوف القديمة ككهوف (التاسيلي) على الحدود الجزائرية الليبية، والتي يعود عمرها وفقا لتقدير

الخبراء إلى آلاف ومئات الآلاف من سنوات مضت، يقول الراوي: «كانت الجدران، على الرغم من هذا، تحوي رسوما لنساء يرتدين ثيابا حديثة نسبيا، ويحملن مظلات واقية، ولرجال فيما يشبه زي الغوص، يحملون أنابيب الأكسجين على ظهورهم، وآخرين يطبرون في الهواء، و حولهم أجسام طائرة، أقرب إلى السفن الفضائية، منها إلى الطائرات..»²⁶، فهذه الرسومات بالرغم من أن التحاليل التي أجريت عليها أكدت أن عمرها يعود لملايين السنين الخالية، إلا أنها توحى بأن من قام برسمها قديما كان يعيش حضارة متطورة، وهذا ما يدعم الطرح الذي تسير في فلكه أحداث الرواية بتخيلها وجود أمة جد متطورة عاشت على الأرض قبل ملايين السنين من الآن.

و تماشيا مع نفس الطرح تثير الرواية أيضا الانتباه إلى قصص الأمم الغابرة عن قصد، من أجل الدعوة إلى إعادة النظر في بعض تفاصيلها بملأ فجواتها، ومثال ذلك طرح قصة سيدنا نوح عليه السلام للنقاش بين شخصيات الرواية بطريقة تعيد النظر في الخفايا وتقرأ التفاصيل الدقيقة للقصّة يقول الدكتور "خالد" أحد أعضاء فرقة البحث العلمي: «- هل سألت نفسك يوما كيف كان العالم، قبل فيضان (نوح) عليه السلام؟! هزّت رأسها نفيا، فأكمل بلغة عالم شغوف:

- (نوح) عليه السلام، حمل في فلكه من كل زوجين اثنين... أليس كذلك؟!

غمغمت في فضول: بلى كان يحرص على أن لا تنقرض الفصائل بالفيضان عندما يغمر الأرض. أشار بيده، مكتملا: عظيم... ولأنه لم يكن يعلم متى سيجد يابسة، يرسوا عليها فلكه، فقد حمل من الطعام والشراب ما يكفي لزمّن غير محدود، كل من على فلكه.

أجاب في حذر: - هذا طبيعي.

مال نحوها متسائلا في اهتمام: - لو أجريت حسبة رياضية، فكم يمكن أن يبلغ حجم فلك، يحوي من كل زوجين اثنين، مع كل ما يكفيهم من طعام وشراب، لمدة لم يعلمها إلا الخالق عزّ وجل؟!!

أجاب (أنور)، دون أن يلتفت: - حجم هائل ولاشك.

تألّقت عينا (خالد) وهو يقول: - وعلى الرغم من هذا لم يبد أحدا دهشته للأمر.

قالت (إلهام) معترضة: - بل أبدو دهشتهم، وهذا مذكور.

أشار بسبّابته، مجيبا: - أبدو دهشتهم من أنه عليه السلام يبني فلكا، في موقع لا بحر فيه... ولم يبد أحدهم دهشته، من بناء فلك بهذه الضخامة، وبكل هذه الاستعدادات... التفسير المنطقي

الوحيد، هو أن بناء فلك كهذا لم يكن أمرا خارقا للمألوف، في زمن ما قبل الفيضان...»⁽²⁷⁾، وهو التفسير الذي يدعم فكرة وجود أمم وحضارات متقدمة قديما، لكن معلوماتنا عنها قليلة، ومثلها أيضا قوم (إرم) ذات العماد التي لم يخلق الله مثلها في البلاد، وقصة (النمرود): «... الذي سعى لبناء برج شاهق يصل به إلى السماء... هل تتصور أن بناء هائل كهذا، كان من الممكن أن يتقبَّله قوم، لم تبلغ تقنياهم حدَّ بنائه»²⁸، فهناك من الأدلة والأشياء الموحية في هذه القصص ما هو كفييل بالشهادة على أن أقوامها عاشوا في حضارات متطورة.

كما تدعونا الرواية - من حين لآخر - لإعادة النظر في النظريات العلمية خصوصا تلك التي ليست يقينية، من أجل إثرائها وتوضيح الغامض منها أو حتى دحض بعض ما جاء فيها، ومثل هذه النظريات التي تعيد الشخصيات في الرواية النظر فيها، بعد ما كانت تعتبر مسلمات، نجد قصة انقراض الديناصورات: «... الديناصورات وحدها سادت الأرض، منذ مائتين وثلاثين مليون عام، وحتى خمسة وستون مليون عاما مضت، عندما انقرضت في العصر الطباشيري؛ بسبب كارثة غير معلومة بالتحديد، والإنسان لم يظهر على الأرض إلا بعد انقراضها بملايين السنين.

أشار بسببته قائلا:- هذه واحدة من النظريات العلمية.

هتفت:- بل هي نظرية موثقة.

ظل هادئا وهو يقول: بل هي واحدة من نظريات مختلفة؛ فلو أنك تهمَّين بالتاريخ القديم، بقدر اهتمامك بالفلك والفضاء، لعلمت أنه هنالك عدة نظريات تعارض هذا، وتؤكد أن الإنسان تواجد مع الديناصورات في وقت واحد، في الأزمنة الغابرة...»²⁹.

إن هذه النظريات والمسلمات العلمية والمعتقدات القديمة التي فتحت الرواية للشخصيات باب النقاش والجدال فيها متنوعة وكثيرة، مثل: زيارة سكان الفضاء للأرض، وجود عوالم موازية لعالمنا، إمكانية اتصال الإنسان بسكان العوالم الأخرى... بالإضافة إلى تلکم الأسئلة والاستفهامات الجادة حول نسبة الحقيقة في العلوم، و أغاز التاريخ المسكوت عنه، وطبيعة الحياة في الماضي... إنما كان بما الراوي يؤثث للقارئ ويمهّد له من خلالها الطريق للدخول في عوالم الحكاية الخيالية، ويسهل عليه الاندماج مع ما سيقع فيها من أحداث غريبة، ومن ثم يدفعه إلى

تقبل الحقائق العلمية والاكتشافات الصادمة التي ستجر عن تحقق حلم الإنسان بالسفر عبر الزمان.

- رابعا: مجاز العلم/ مستوى تطور العلوم والتكنولوجيا في رواية "الذين كانوا":

يحتفي معظم كتّاب روايات الخيال العلمي بالتطور التكنولوجي في إبداعاتهم، فيسعون دائما إلى محاولة رصد درجة التقدم التي من الممكن أن يصلها العالم مستقبلا من خلال إعطاء صور محتملة للأدوات والآلات والابتكارات والأجهزة المتطورة والعلوم التي من الممكن أن يكتشفها الإنسان مستقبلا، وهي صور حتى وإن كانت خيالية أو مجازية فالهدف من ورائها استشراق أثر التكنولوجيا المتقدمة على حياة الإنسان المستقبلية في الأرض أو خارجها، وشاع ارتبط الخيال العلمي بالتطور، إلى درجة أصبح الحديث عن الخيال العلمي لدى العامة والمختصين يرتبط أساسا بالتكنولوجيا³⁰، وبجديد العلوم الدقيقة والافتراضية.

وبدوره جعل "نبيل فاروق" من التكنولوجيا والتقدم العلمي محورا رئيسيا في روايته، إلا أن الصور المبهمة للتكنولوجيا المتطورة التي حاول الكاتب رصدها ورسمها لم تكن في المستقبل كما هي العادة، بل في الماضي، الماضي السحيق، قبل ملايين السنين من الآن عند أولئك الذين كانوا قبلنا وتفوقوا علينا في كل شيء: «فالأول مرة، يدرك البشر أنهم لم يكونوا أول مخلوقات عاقلة سكنت الأرض... لأول مرة ينكسر غرورهم في قسوة... فهناك الأوائل، الذين سبقوهم... والذين فاقوهم... والذين فنوا... الأوائل... الذين كانوا...»³¹.

ومن أوجه التفوق العلمي والتطور الذي سبقت به حضارة "الذين كانوا" قبل ملايين السنين الإنسانية اليوم، نجد في قول الراوي: «كل شيء حوله كان مدهشا... مبهرا... ومذهلا... فعلى عكس الصخور الصماء، والصحراء الباردة، التي تمتد إلى مدى البصر، على سطح القمر، كانت تلك القاعة، التي وجد (ميلروي) نفسه داخلها، تحفة تكنولوجية من الطراز الأول... أو فوق الأول...»

أرضية مصنوعة من قطعة واحدة، من معدن لامع، له لون شمباني باهت، مع حمرة خفيفة...

جدران مضيئة على نحو خلاب مبهر...

شاشات هولوجرامية كبيرة، تسيح في فراغ القاعة...

خريطة كونية ثلاثية الأبعاد، تصور كوكب الأرض من الفضاء...³². كل هذا في القمر، إذ يبدو أن سكان العالم الآخر بلغوا سطح القمر قبل الإنسان بملايين السنين، ونقلوا إليه ما بلغوه من تطور ووقفي، فأقاموا فيه حضارة أبحرت رائد الفضاء الذي بقي مشدودا ومذهولا مما رآه، بل إن القاعة التي أُستقبل فيها - من طرف سكان العالم الآخر - كانت مكيفة بشكل جيد وهواءها نقي وصافي بشكل مناسب للعيش فيه بدون خوذة التنفس والألبسة الواقية على الرغم أنها تقع في الفضاء الخارجي، الذي لا يستطيع إنسان اليوم العيش فيه أبدا بدون وسائل الحماية. وبلغت بهم التكنولوجيا كذلك إلى القدرة على صناعة أوراق للكتابة بمميزات خاصة، حاماتها معقدة غير معروفة في عالمنا، فيها مزيج من البلاستيك، مع مادة حيوية، وقليل من التيتانيوم، والألياف الصناعية... تبين بعد إجراء عدة تحاليل طيفية على نسخة منها (رسالة) في كوكب الأرض أنها ليست ورقة فحسب، إنما هي أشبه بالدوائر الرقمية في عالمنا، ليجمع المحللون بعد التعمق في دراستها أنها ليست مجرد دائرة رقمية فقط، وإنما خريطة إلكترونية... خريطة إلكترونية؟!!

أجابه الأول بكل توتره: - بل خريطة جغرافية يا جنرال.

اعتدل (دوايت) في اهتمام، ومال نحو شاشة الاتصال: - لأي موقع على الأرض؟!!

تبادل العلمان نظرة مترددة متوترة، قبل أن يقول الأول:

- ليس موقعا جغرافيا أرضيا يا جنرال.

- إذن أين؟!!

- القمر...³³. وهي في الأصل رسالة على شكل خارطة قمرية من "الذين كانوا" لسكان الأرض، تحدد موقعا افتراضيا من أجل التلاقي معهم على سطح القمر، ليثبتوا لهم أنهم قد وصلوا إلى القمر قبل أن يصل إليه الإنسان، وبأنهم كانوا هنالك قبلهم.

ومن أعجب صور مجاز العلم في الرواية، قدرة سكان العالم الآخر على التلاعب بالموثرات والجينات البشرية وتعديلها بدمجها مع جينات مخلوقات أخرى، حتى يتناسب جسد الإنسان وشروط الحياة في العالم الموازي الذي عاشوا فيه قديما، وهو ما حصل لجسد (شريف) بعد انتقاله الزمني نحو الماضي، يقول سكان العالم الآخر عن هذه الهندسة الجينية المتطورة التي بلغوها: «- ليس هذا هو التغيير الوحيد، الذي صنعناه بك، حتى يمكنك التعايش مع طقسنا...»

نسبة الأكسجين في هوائنا، تقلّ بكثير عن نسبته في موطنك، والجاذبية كذلك تختلف بعض الشيء، ولهذا كان من الضروري تكيف جسدك؛ حتى لا تتعرض للخطر هنا.

جف حلقه وهو يسأل في صعوبة: - ماذا فعلتم؟!

تردّوا جميعا للحظات، ثم قال أحدهم في حذر:

- قمنا بتعديل مورثاتك قليلا.

اتسعت عيناه في رعب وهو يهتف للمرة الثالثة:

- ماذا فعلتم بالله عليكم؟!

- أضفنا إليك مورثات قوية، تجعل جسدك قادرا على التكيف، مع أية ظروف خارجية... مورثات

ما تسمونه (دب الماء) في وطنك...»³⁴.

ودب الماء أو خنزير الطحلب بطيء الحركة، هو حيوان تم اكتشافه من طرف العلماء للمرة الأولى عام 1773، ووصفوه بأنه أقوى حيوان على وجه الأرض، عاش مع الديناصورات ومازال إلى الآن... وهو أيضا - بحسب ما جاء في الرواية من حقائق علمية - كائن ميكروسكوبي، يعرف علميا باسم (تاردigrada)، له خاصية مدهشة، تجعله يتحمل أقصى الظروف المعيشية، مثل غياب الماء والهواء، ودرجات الحرارة شديدة الارتفاع والانخفاض³⁵، ويمكن أن نقول عليه أنه كان موجود منذ بدء الخليقة، فهو شبه خالد بسبب قدرته الخارقة على التحمل والتكيف... أي أن اندماج جيناته مع جينات الإنسان سيجعل هذا الأخير يأخذ من قدراته وصفاته، وهي المعلومة التي تدفع بخيال الرواية العلمي إلى أقصى حدوده نحو المستحيل، بل العجيب الذي لا يمكن تصوره، ولا حتى تصديقه، فكيف سيصبح للإنسان قدرات عجيبة لا تفهر! «... مصري صار يملك قدرات خارقة، جعلته تقريبا غير قابل للفناء، وطاقم علمائنا يدرس حالته، ويحاول مجرد فهمها... وبدونه لن نعلم كيف فنيت حضارة سبقتنا، دون أن تترك خلفها أثرا...»³⁶. وهكذا تسافر بنا الرواية في أسرار الأزمنة البعيدة، ويُلحق خيالها العلمي بالقراء نحو مجاز علمي شاسع، تُطرح فيه عديد الأسئلة، ويُوضع حول حدود آفاقه الواسعة عديد علامات الانبهار والتعجب.

- خامسا: هيمنة نسق الرُعب والخوف على أحداث الرواية:

تدور أحداث رواية "الذين كانوا" في مناطق متعدّدة ومتباينة على كوكب الأرض، وفي سطح القمر، وفي العوالم الموازية... فالشخصيات فيها تبدو دائمة التنقل والحركة من مكان إلى آخر، ولكن ما يميز هذه الحركة المتنوعة بين الأماكن المتباعدة هو هيمنة نسق الرعب فيها على الأحداث، فالشخصيات تعيش في إحساس دائم ومستمر بالتوتر والتردد والرعب تجاه ما تواجهه من أحداث غريبة لا تُصدّق على امتداد مسار الرواية الحكائي. وهذا ما يعمل على تحريك غريزة الخوف في نفسية المتلقي كذلك، فيندفع القارئ - ودون ما يدري - إلى الانفعال والتأثر بتلكم الأحداث المشوّقة والغامضة تماما كما تأثرت بها الشخصيات التي تعيشها، فتجده يفاجأ مع الشخصيات وهو يقرأ، ويشعر بارتباك شديد وترقب للجديد يجبس الأنفاس.

فمنذ الكلمات الأولى للبداية تفتح الرواية على مشهد ليلي مغمّر تُسيطر عليه أجواء من الرعب، في قصر مهجور، تماما كما الأفلام السينمائية الخيالية، يقول الراوي: «ارتفع عواء ذئب بري من بعيد؛ ليضيف رهبة نمطية على ذلك القصر القديم، الذي بدأ على ضوء البدر المكتمل أشبه بأطلال تاريخية، يلقي عليها ضوء القمر الفضي ضلالا مخيفة، جعلتها أشبه بمشهد تقليدي، في واحد من أفلام الرعب القديمة...»³⁷.

وبعد هذه الافتتاحية المشوقة التي تجبس أنفاس القراء في البداية، تُستأنف الأحداث المرعبة، ويكون أول ظهور لبعض الشخصيات وهي في درجة عالية من التوتر والانفعال الشديد أثناء متابعة ضلال غريبة لأشباح، يرجح أنها لكائنات غريبة كانت تستعرض نفسها أمام سكان الأرض، يقول الراوي أيضا: «... وعلى الشاشات ظهرت بقعة حمراء، جعلت الجميع يجلسون أنفاسهم... ومع تصاعد نبضات الملتح، الذي بدا من الواضح أنه يرأس ذلك الفريق العلمي، ظهرت دائرة حمراء وسط شاشاته، راحت تتسع وتتسع، حتى استقر حجمها... ثم قفزت قلوب الكل في انفعال...»

فمن وسط تلك الدائرة، ظهر ضل داكن... ثم ثان... وثالث... ورابع... أربعة ضلال شبه بشرية، عبرت تلك الدائرة الحمراء ووقفت أمامها ساكنة، وكأنها تتطلع بدورها لذلك الفريق العلمي... وفي توتر، همت إحدى الباحثات بقول شيء ما، يعبر عن التوتر الشديد في أعماقها...»³⁸، وهو توتر يعيش القارئ ما يشاهده أثناء القراءة، إذ يبدو أن هذه الحادثة تكررت في عدة أماكن متفرقة على سطح الأرض، وبصور متشابهة في فرنسا والهند ومصر...

وكانت في كل مرة تتكرر فيها يتكرر معها إحساس الشخصيات بالذهول والتوتر، عندما لا تجد تفسيراً منطقياً لما يحدث معها.

وحتى عندما يقوم الراوي بنقل الوقائع التي تجري على سطح القمر، يحافظ على إتباع نفس النسق المثير للرعب في سرده، وذلك مثل حديثه عن الحادثة الغريبة التي جرت مع رائد الفضاء في مهمته على سطح القمر «... وفجأة اتسعت عيناه عن آخرهما... وانطلقت من حلقة شهقة قوية.. ولولا واجهة الخوذة الزجاجية، لفرك عينيه من فرط ذهوله... فهناك... على مسافة مائتي متر منه تقريباً... وعلى سطح القمر... كان هنالك رجل يمشي... ليس رائد فضاء يرتدي حلة واقية مثله بل رجل عادي... رجل يرتدي حلة خفيفة، من قطعة فضية واحدة... دون قفازين سميكين أو خزان أكسجين... أو حتى خوذة واقية...»

"ماذا يحدث عندك يا (سي-17)؟! ... لماذا هذه الشهقة؟!..."

سمع السؤالين عبر خوذته، فغمغم ذاهلاً مأخوذاً:

- لن يمكنكم أبداً تصديق ما أراه أمامي.

أتاه الجواب مفعمًا بالتوتر والقلق: - صف ما تراه أمامك يا (سي-17).

ازدرد لعابه في صعوبة، وهو يتابع ذلك الرجل يقترب بابتسامة...³⁹، لقد بقي الجميع مصدوماً من هذه الحادثة، فلا يوجد أي تفسير منطقي لها، وبقيت ملابسها معلقة كلغز غامض ليس لديه حل، ليُضح مع وصول أحداث الحكاية إلى نهايتها أن الرجل الذي ظهر على سطح القمر فجأة ودون معدات التنفس والحماية هو (شريف فؤاد)، الذي سافر عبر الزمن، أرسلته مخلوقات العالم الموازي الذي سافر إليه بعد إجرائها تعديلات جينية على جسمه، ليكون سفيراً بين حضارة "الذين كانوا" والبشر في زمانه.

وتسير على نفس الوتيرة المشحونة بمشاعر الخوف والقلق أغلب أحداث الرواية منذ البداية حتى النهاية، فتتنامي فيها الوقائع وفق إيقاع في السرد يميل إلى الغموض الذي يهدف من خلاله الراوي إلى إثارة الدهشة والعجب في نفسية المتلقي، عن طريق عرضه للأحداث لحظة بلحظة وبطريقة متوترة تماماً كما عايشتها الشخصيات مشدودة الأعصاب لحظة وقوعها، ومثال ذلك في الرواية نجد قول الراوي: «هتف (شريف) بالعبارة في صوت مختنق ذاهل، عندما تبدى له ذلك الكائن في حجرته... لم يعد ظلاً كما كان...»

اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يحدق فيه، في حين قال الكائن في هدوء:

- صدقتي... أنا أيضا أشعر بالرهبة من هذا اللقاء.

غمغم شريف، ورأسه يتناقل: - من أنت؟!... أو ما أنت؟!!

ابتسم ذلك الشيء وهو يقول: - ستدرك هذا بعد بعض الوقت...

غمغم بكل توتره: - أي وقت...⁴⁰. ويبدو أن الصورة الواضحة التي أصبحت تظهر بها هذه الأشباح للعيان وتتجلى من حين لآخر في هيئة كاملة لتتبادل أطراف الحديث مع البشر بسهولة، كانت عاملا مؤثرا لرفع مستوى الضغط والخوف والإدهاش الذي تحيا فيه الشخصيات.

ويرتفع إيقاع الفزع إلى أقصى حدوده بانتقال أحداث الرواية إلى العالم الآخر عقب نجاح محاولة السفر عبر الزمن، وانتقال (شريف) إلى بلاد الكائنات الغريبة، يقول الراوي عن صدمة اللقاء الأول بين الطرفين في موطن الآخر: «... سمع الكلمات وفهمها في وضوح، على الرغم من أنها لم تنطق بأي لغة معروفة، فحدّق في وجه قائلها في ارتياح وهو يقول: لماذا أحضرتوني إلى هنا؟»

مال عليه أحد أصحاب الوجوه المستديرة، وقال في هدوء ومودّة: ستعود إلى عالمك... اطمئن.

حاول أن يعتدل فوق تلك الوسادة الهوائية، وهو يقول في توتر عصبي:

- لماذا اختطفتوني من عالمي؟!....

ثم انتبه للموقف، فعاد يهتف في توتر:

- كيف يتأتى أن أفهمكم؟!... لغتكم تختلف عن أية لغة عرفتها في حياتي!!...⁽⁴¹⁾.

تعيش الشخصيات تلك اللحظات وسط مخلوقات العالم الموازي مذهولة ومفزوعة مما تراه من عجائب وتسمع من حقائق صادمة، فتشعر كأنها في حلم مزعج أو كابوس خيالي تريد الانتهاء والخروج منه بأقصى سرعة. وهذه هي ميزة أدب الخيال العلمي المتلبس بقصص الرعب، يستعين فيه كتابه أحيانا بشحنات الخوف المبني على إحداث المفاجأة والصدمة والإدهاش عندما يتحدثون عن العوالم الأخرى والكائنات التي تسكنها، فيتخذون من خيالهم وخبراتهم في السرد مساعدا لهم في تحريك غريزة الخوف في نفسية المتلقي طوال مسار الحكى بحثا عن مشاركته الوجدانية الفاعلة أثناء القراءة.

- خاتمة:

تُعد تيمة السفر عبر الزمن مِيزة جوهريّة في أدب الخيال العلمي، فهي تفتح للروائية آفاقاً واسعة للتجريب، وأراض بكرًا للكتابة، فتمكّن المبدعين من تفجير طاقاتهم التخيلية، وعرض ثقافتهم المعرفية على القراء، عن طريق كشف قدراتهم الإبداعية التي يستطيعون من خلالها المزاجية بين الأدب والعلم في قالب أدبي واحد؛ وعليه قام الروائي نبيل فاروق في روايته "الذين كانوا" بخوض تجربة الكتابة في موضوع الارتحال الزمني موجّهاً وجهته رحلته إلى الماضي، الماضي الذي لم يسمع به أحد قط، وحاول أن يبحر بأفكاره المتشعبة في حضارة أولئك الذين كانوا قبلنا، وتفوّقوا علينا في العلم، والتكنولوجيا، والجغرافيا، والرقميات، والفلك، والطب، والهندسة الجينية، وعلوم اللسان... فكانت روايته رواية كاشفة وفاحصة ودقيقة، تمهّد للمعلومة الجديدة أسباب قبورها، وللتكنولوجيا المتطورة ما يبرّرها، وللأفكار العجيبة ما يجعلها مألوفة، وللأشياء الغريبة ما يجعلها مستساغة، والأهم من ذلك هي رواية تعيد البحث في أسرار الحياة بجرأة، وتنقب في أغاز التاريخ بجدية وتفان ترجوا من ورائه بلوغ لب الحقيقة، وإثارة ثقافة الأسئلة المتجددة و شغف البحث الدائم في جميع ميادين المعرفة والعلوم.

هوامش:

- ¹ - عصام بهي: رواية الخيال العلمي ورؤى المستقبل، مجلة النقد الأدبي فصول، مج2، ع2، 1982، ص57.
- ² - فيصل الأحمر: تلقي الخيال العلمي في الجزائر أعمال المؤتمر الدولي الرواية العربية في الألفية الثالثة ومشكل القراءة في الوطن العربي، الجزائر، 2016، ص46.
- ³ - شوقي بدر يوسف: أدب الخيال العلمي وصناعة الأحلام، مجلة عمان، ع118، الأردن، 2015، ص78.
- ⁴ - نبيل فاروق: اللذين كانوا، سبارك للنشر والتوزيع، 2014، ص130.
- ⁵ - ج. ريتشارد جوت: السفر عبر الزمن في كون أينشتاين، تر: عاطف يوسف محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص17.
- ⁶ - ينظر: محمد عزام: الخيال العلمي في الأدب، دار طلاي، ط1، دمشق، 1994، ص9.
- ⁷ - ينظر: عصام بهي: رواية الخيال العلمي ورؤى المستقبل، ص59.
- ⁸ - طالب عمران: الخيال العلمي وتجربتي مع المصطلح، مجلة الخيال العلمي، تصدر عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ع5-6، 2008-2009، ص14.
- ⁹ - المرجع السابق، ص14.

- ¹⁰ - ينظر: عبد السلام البقالي: الطوفان الأزرق، الدار التونسية للنشر، ط2، 1986، ص8.
- ¹¹ - ينظر: محمد أحمد مصطفى: أدب الخيال العلمي العربي الراهن والمستقبل، مجلة النقد الأدبي فصول، ع81، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008، ص85-86.
- ¹² - ينظر: طالب عمران: الخيال العلمي وتحريري مع المصطلح، ص15.
- ¹³ - سمير الديوب: أدب الخيال العلمي بين الأدبية والعلمية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، تصدر عن مركز جيل للبحث العلمي، ع18، العام الثالث، 2016، ص14-15.
- ¹⁴ - ينظر: المرجع السابق، ص15.
- ¹⁵ - الرواية، ص140.
- ¹⁶ - الرواية، ص108-109.
- ¹⁷ - الرواية، ص137.
- ¹⁸ - الرواية، ص138-139.
- ¹⁹ - الرواية، ص139.
- ²⁰ - الرواية، ص145-146.
- ²¹ - الرواية، ص148.
- ²² - الرواية، ص156-157.
- ²³ - الرواية، ص162.
- ²⁴ - الرواية، ص166.
- ²⁵ - الرواية، صفحة الغلاف الخارجي الأخيرة.
- ²⁶ - الرواية، ص47.
- ²⁷ - الرواية، ص48-49.
- ²⁸ - الرواية، ص50.
- ²⁹ - الرواية، ص126.
- ³⁰ - ينظر: ديفيد سيد: الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدا، تر: نقين عبد الرؤوف، هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2016، ص50.
- ³¹ - الرواية، ص170.
- ³² - الرواية، ص128.
- ³³ - الرواية، ص79.
- ³⁴ - الرواية، ص132-133.

- 35- ينظر: الرواية، ص133.
36- الرواية، ص169.
37- الرواية، ص07.
38- الرواية، ص08.
39- الرواية، ص13.
40- الرواية، ص83.
41- الرواية، ص131-132.